أضواء حول رؤية السلطة الإستراتيجية لبلاد الحجاز خلال العصر المملوكي

إعداد

فتحى توفيق فتح الله رضوان

أضواء حول رؤية السلطة الإستراتيجية

لبلاد الحجاز خلال العصر المملوكي

مكة المكرمة والمدينة المنورة ، أكثر بقاع الدنيا قداسة ، مهوى الأفئدة قبلة المسلمين ومسعى الحجيج والمعتمرين ، وشرف تنافس الباحثون فى كافة الدراسات للبحث فيه والغوص فى تاريخه ، وكما تنافس الباحثين لنيل هذا الشرف تنافس القوى السياسية قديماً لنيل شرف خدمة وتعمير الحرمين الشريفين ، لدوافع دينية وسياسية وشعبية ، وهذا هو صلب موضوع هذه الدراسة.

أما عن الارتباط الاستراتيجى بين الحجاز ومصر فيمكن أن نستطلعه مبكراً فقد طلب الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص أن يحفر خليجا من النيل إلى البحر الأحمر، حتى يمكن حمل الطعام إلى المدينة المنورة ومكة، وذلك بعد ما أصابهما من جهد فى عام الرمادة فأعاد عمرو بن العاص حفر قناة تراجان ، ولم يمض على ذلك عام حتى جرت السفن فى القناة التي عرفت باسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب [١] .

ثمة ارتباطات أخرى عضدت حالة الانصهار بين المجتمعين المصرى والحجازي ورغم مسوحها الحضارية إلا أنها شكلت واقع إستراتيجى كبير ، فقد استمرت حركة العلماء فى الترحال والسفر إلى حواضر العالم الإسلامى، كما قام العلماء المصريون فيها بنصيب وافر حيث خرجوا إلى بلاد المشرق الإسلامى، خاصة الحجاز والعراق وبلاد الشام، طلباً للعلم والدرس على أيدي علماء هذه البلاد، كما كان وفود الكثير من العلماء إلى مصر سبباً فى نشر علمهم فى جنباتها [٢] ، كما كانت رحلة الحج عاملاً هاماً فى مرور العديد من علماء شمال أفريقيا وبلاد الأندلس، فضلاً عن علماء مصر [٣] .

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ص ١١٢ .

(٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٢٢٧.

(٣) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى إلى آخر الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ وما بعدها .

وفى واقع الأمر فإن ميادين متعددة حاول المماليك أن يتصدروا الصورة فيها للحفاظ على الارتباط الاستراتيجي بين السلطة المملوكية والحرمين الشريفين فقد كان للسيطرة على عمل كسوة الكعبة دلالات وأبعاد سياسية وروحية لدى السلطة المملوكية ، وحسب الباحثة (إيمان صلاح) إن الاهتمام بكسوة الكعبة كان قبل الظاهر بيبرس إذ تقول أن وقف شجرة الدر في ذلك الوقت كان مادياً تضمن عدداً من القرى والتي وهبت بالإمدادات بكسوة الكعبة وتوالت أعمال السلطان الظاهر بيبرس طوال فترة حكمه في كسو الكعبة عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٢م [١]وهو أول من كساها من ملوك الترك[٢] ،فقد قام الظاهر بيبرس وغسل الكعبة بيده بماء الورد وعلق الكسوة بيده[٣].

وفى الواقع فقد كان بيبرس متفهماً لأهمية مكة المكرمة والحجاز بصفة عامة ولذلك فقد كان حريص عندما أحيى الخلافة العباسية أن يقلده الخليفة فى نص التقليد بلاد الحجاز أيضاً وفيما يلى مختصر لتقليد بيبرس بلد الحجاز من الخليفة العباسى بالقاهرة :

الحمد لله الذي أصفى على الإسلام ملابس الشرف، وظهر بهجة درره، كانت خافية، بما استحكم عليها من الصدق، وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر من سلف، وقبض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلف، ...ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولى السلطاني الملكي الظاهري الركني . شرفه الله وعلاه . ذكرها الديوان العزيز النبوي الأمامي

(١) إيمان صلاح عطاطة : دور نساء البلاط في مصر في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة طنطا ، ٢٠١٥ ، ص ٤٣٢ ؛ وراجع فى نفس المعنى : وليد كمال شعبان إسماعيل : الرعاية الاجتماعية فى بلاد الحجاز زمن سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة الفيوم ، ٢٠١٧ ، ص ١٩١ .

(٢)ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القري ، السعودية مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، جـ ٣ ، ص ٨٧ ؛ راشد شعبان القطحاني : أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ١٤١٤ ، ١٩٩٤ ، ص ٣٤.

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م ، ص ٣٥٥؛ المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء والملوك ، مكتبة الخانجى مصر ، ومكتبة المثنى بغداد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥ ، ص ٩١.

المستنصري . اعز الله سلطانه . ... وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان و أذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صوات مغضب، فأعاده لها سلما بعد أن كان (عليها) حربا، ... وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا.....[١] .

إذن فلم تتهاون فى ترك عمران الحرمين الشريفين لأى من القوى إلا باستذانها وبعد محاولات طويلة وتحت إشرافها المباشر مثل ما حدث وتكرر ذلك أيضاً في سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م عندما وصلت سفارة من ملك كليوجيه من الهند إلى مكة ومعها هدية للسلطان الأشرف برسباي وهدية لأمير مكة ، بالإضافة لمبلغ نقدي بلغ ستة آلاف دينار ليشتروا داراً عند الصفا لتعمر مدرسة ووصلت الهدية القاهرة سنة ٨٣٠هـ /١٤٢٦هـ وسألوا الإذن بالبناء للمدرسة من السلطان [٢].

وفي واقع الأمر يمكننا أن نؤكد أن سياسة المماليك تجاه بلاد الحجاز كان أحد وجهها دعائى ، وحسب أحد الباحثين أنه أرادوا التقرب إلى الشعب المصري: حيث لم يكن ليشفع للمماليك وقوفهم أمام التتار واستئصال شأفة الصليبيين من الساحل الشامي والمنطقة العربية عند من يحكمونهم، لأنهم عبارة عن جماعات أجنبية من البلاد المختلفة شرق وشمال وغرب العالم الإسلامي، أضف إلى ذلك أنهم أرقاء عبيد لا توجب لهم طاعة لذلك أكثر المماليك من الأسباب والسياسات التي قد تقربهم من الشعب الذي يحكمونه وقد وجدوا ضالتهم في الاهتمام بالحرمين وحجاج بلاد الحرمين [٣] ، وبالتالي فإن السياسة الاجتماعية كانت مكملة لهذا الأدوات السياسية للسلطة المملوكية .

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق حسين نصار، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م ، جـ٦، ص ص ١١١– ١١٣ بتصرف .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م ص ٢٣٠؛ أحمد ناصف : أغراض السفارات إلى مصر فى العصر المملوكي ، ص٥٢٦ .

(٣) مسعود محمود على عبادي : عفاريت المحمل عصر سلاطين المماليك ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة جنوب الوادى ، ٢٠٢١ ، ص٢١١٦ والتى تليها .

هذا وقد حرص السلاطين والملوك والأثرياء على إرسال الأموال والصدقات، وأوقفوا الأوقاف على المدارس والأربطة، واعتنوا بعمارة المسجد الحرام، وتأمين طريق قوافل الحجاج والتجار، وحارب السلاطين والأمراء الشُطار وقطاع الطريق، والقبائل التي كانت تنهب الأموال، وتروع الآمنين، وقام سلاطين المماليك برفع المُكُوس والضرائب التي كان يفرضها أشراف مكة وحكامهم على الحجاج والتُجار مما كان سبباً في ازدهار الحياة الاقتصادية في مكة، وامتلاء الأسواق حول المسجد الحرام بكل أصناف البضائع [١] .

في سياق آخر فقد كانت الدولة الإسلامية تلجأ لفرض ضرائب إستثنائية على رعاياها في وقت وجود خلل في الميزانية مما يستدعى أحكام استثنائية ، ولما كانت المكوس التي تأخذ من الرعية كان ذلك يمثل حمل كبير عليهم وعلى من يستخدم هذه البضائع غير هناك في التاريخ الإسلامي من الحكام من قام بإلغاء المكوس تخفيفاً عن الرعية مثل الأمير نور الدين محمود الذي لم يترك مكس في بلاد الشام والجزيرة العربية أو ديار مصر إلا وجدت إلغاها [٢] .

وقرر ذلك في ديوان السلطان شعبان [٣] وقد نصت الوثيقة التي تناولها بالنشر والدراسة (راشد سعد القطحاني) على ألا يتناول شريف مكة شيئاً من المكوس من حاج ولا مقيم ولا زائراً ومجتاز من براً أو بحر وما لا يباع بأسواق مكة من مأكول أو مشروب ولا ني أو مطبوخ ومن جميع ما به من المزرعات من الفاكهة والثمار والأطعمة والأدهان وكذلك على الحيوانات من الإبل والبقر والغنم [٤] .

يمكننا أن نؤكد أن السلطة المملوكية اتبعت سياسة منضبطة تجاه بلاد الحجاز ، فلم تترك فرصة يمكنها أن تساهم فيها فى تطور الحياة فى المجتمع الحجازي إلا وشاركت فيها

---

(١) ماجد بن عبد الله خليل الحازمى : الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك ، مجلة البحث العلمي في التربية ، العدد التاسع عشر لسنة ٢٠١٨ ، ص ٤٢١ .

(٢) عبد الكريم حلول : نوازل المكس دراسة فقهية تحليلية ، المجلة العربية للنشر العلمي ، العدد التاسع والعشرون ، ٢٠٢١ ، ص ٣٤٢.

(٣) سارة بنت عبد الله سيف العتيبي : الأعمال الخيرية لسلاطين المماليك فى مكة والمدينة ، مجلة الجمعية التاريخية السعودية ، السنة ١٤ ، عدد ٢٩ ، ٢٠١٤ ، ص ١١٦.

(٤) راشد القطحاني : أوقاف السلطان الأشرف ، شعبان الحرمين ، ص ٩٠ ، ٩١.

ودعمتها ، ويمكن أن نرصد هذه المناحى التى شاركت فيها السلطة المملوكية والتى يمكن أن نعتبرها نوع من أنواع العمران ولكن بمعناه الأوسع ، فالعمران هنا يمكن أن نستخدمم معناه الواسع كما ضبطه ابن خلدون له أثر كبير فى حيوية المجتمع جميعًا يتوقف رخاء المجتمع ورفاهيته. وهنا يرتبط العمران بالرخاء فيعم الرخاء وانتعش الاقتصاد وكان لذلك أثره في رفاهية المجتمع البشري ورقيه وبلوغه مراحل الترف والنعيم (١) .

ولم يكن هذا الأمر فى الذهن السياسى سواء العربى المبكر أو المملوكى فقط بل يمكن أن نطالعه حتى فى فترات الدولة الأيوبية ، فعلى سبيل المثال أعلن صلاح الدين الأيوبى إسقاط الدولة الفاطمية والدعاء للخلافة العباسية على منابر الحرمين الشريفين أيضاً وقد كان صلاح الدين يهدف من وراء ذلك إلى دعم حكمه في مصر بعدة أمور، منها أن يبرهن علي ولائه للخلافة العباسية بإعلان الخطبة للخليفة العباسي علي منابر مكة والمدينة، حيث تعهد ولاة الحجاز بذلك، كما أنه كان يريد أن يبدو في نظر المسلمين أنه حامي حمى الحرمين الشريفين، وهو ما صار علي نهجة سلاطين الأيوبيين والمماليك (٢).

وعلى ذلك يمكن أن نستطلع مستويات أمنية أخرى تختص بفكرة السيادة فى ما حدث بل إن هذه الرؤية المتعلقة بالسيادة وصلت لمرحلة الاستئذان لمجرد أداء فريضة الحج فى حال قدوم أحد الملوك الراغبين فى أداء الحج وكانت هناك سفارات للاستئذان بالذهاب للحج خاصة وإن سلاطين المماليك كانوا يظهرون أمام العالم على أنهم حماة للحرمين الشريفين، فضلاً عن ذلك

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، تصحيح : محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت، سنوات الطباعة ١٩٨٧، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ح١١، ص٤٢٠؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، ص٦٦؛ الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق :العلمية، محمد حامد الفقى ، فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦ ، ح١، ص١٨٩؛ سليمان مالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة في بغداد ٢، ١٩٩٣م، ص ٤١؛ أحمد عبد الحميد خفاجي: موقف مصر من الحجاز فى عصر المماليك الجراكسة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص١١، ص١١ ؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص٢٣٧؛ سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص٤٠ ؛ مصطفى دويدار : أمراء الطواشية ودورهم السياسي والحضاري في العصرين الأيوبى والمملوكي الأول ، دار العالم العربى ، القاهرة ، ٢٠١٧ ، ص ٢١٢ .

فقد كان لوجود الخلافة العباسية لديهم بالقاهرة كما أسلفنا فى تمهيد الدراسة دور كبير فى هذا فصاروا يحملون بذلك راية الإسلام وتوفير سبل الحج لجميع المسلمين، أضف أيضاً أن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج شمال أفريقيا للأراضي الحجازية فكان ملوك المغرب الراغبين في أداء فريضة الحج يرسلون لسلاطين المماليك لاستئذانهم فى المرور من أراضيهم [١] .

كما كانت السلطة المملوكية حريصة على مراقبة الوضع الإقتصادى فى مكة المكرمة وفى الحقيقة فقد حرص سلاطين المماليك على الإهتمام بأمور التجارة فيها حيث كان عدد المراكب التى تدخل الى مكة كل يوم تحمل خمسمائة جمل[٢] ، وحسب "نادية عابد العدواني " أن العسكريون المماليك المتولّون للوظائف في مكة المكرمة كانوا أمراء بمختلف الرتب العسكرية ترسلهم السُلطة لتولي الوظائف بمكة، ولم تقتصر السُلطة في تعيينهم على الوظائف العسكرية؛ بل معظم هؤلاء العسكرين –إن لم يكن كلهم– كان يتولون وظائف أخرى إلى جانب وظائفهم دينية، أو إدارية، أو معمارية، أو تجارية؛ فضلاً عن ذلك فإن من العسكريين من أسندت إليه إلى جانب وظيفته وظائف متعلقة بالتجار [٣] .

كما كانت الدولة حريصة على حماية أموال التجار المجاورين وتدلل إحدى الحوادث على ذلك فعلي بن يوسف البزاز تعرض للعقوبة لاخفائه بعض الأموال الخاصة بالتجار المجاورين بمكة[٤] .

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٣ ؛ أحمد ناصف : أغراض السفارات إلى مصر فى العصر المملوكى : القوى الإسلامية والمغول أنموذجاً ، بحث منشور بمجلة البحوث والدراسات الأندونسية ، ٢٠١٧، ص ٥٢٧.

(٢) محمد محمود عناقرة : الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر سلاطين المماليك، الهيئة العامة للكتاب ، الأردن ، جامعة اليرموك ، ٢٠١٥ م ، ص ٥٠ .

(٣) نادية عابد العدوانى : وظائف العسكريين المماليك فى مكة المكرمة فى عصر المماليك الجراكسة ، بحث منشور فى المجلد الثالث من العدد السادس والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ، ص ٥١٠.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القري ، السعودية مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ،ج٤،ص١١٤ .

ويمكن أن نضيف محور آخر من محاور الارتباط الاستراتيجي بين المجتمعين تتمثل في الأمن الفكرى الذي شكل أحد أوجه السيادة المعنوية التى أقرتها السلطة المملوكية فى سيرورة العلاقة بينها وبين مجتمعى مكة والمدينة ، ومن هذه الملامح موقف المماليك تجاه الأفكار المشبوهة فى مكة والمدينة ، حيث تصدوا بالمرصاد لكافة التيارات الفكرية المنحرفة ولم يسمحوا بإنتشارها أو حتى مجرد وجودها ، وللوقاية الفكرية فقد حرصت السلطة علي إنشاء العديد من المدارس لكي تكون مكان يتلقى فيه طلاب العلم من كل مكان في العلم [١] ، ومن الجدير بالذكر بالذكر وفى زمن المماليك أصبحت المدرسة مكان عبادة ودرس، إذ لم يميزها عن المسجد إلا مساكن الطلبة التى كانت تلحق عادة بالمدارس [٢] .

وفيما يتعلق بالحفاظ على أمن المجتمع الفكري والتصدي للأفكار المشبوهة فمن هذه الأفكار المشبوهة فكر الشيعة، فلم ينس الشيعة نفوذَهم السياسي في بلاد الشام ومصر وبلاد الحجاز، وبلاد المغرب في عهد الدولة المعروفة بالفاطمية، فتغيرت استراتيجية الشيعة لحين وكانت الاستراتجية الجديدة الاكتفاء بنشر الفكر كدأب موهبتهم القديمة ، وقد ساهم فى ذلك وجود بعض كبار العناصر الفكرية منهم مثل وجود شيخ الشيعة الإمامية السكاكيني الذى أقام بالحجاز سبع سنوات كان متعصباً على أهل السنة[٣] ، لذا لا نستغرب أنه فى عصر السلطان جقمق وجدت قوة لحماية المجتمع الحجازى من وجود الروافض [٤]، كما أن السلطة المملوكية استثنت الزيدية والروافض من الصرف عليهم من أموال الوقف[٥].

---

(١) خالد الجابرى : الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، رسالة ماجستير كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤١٣هـ ، ص ١١٧.

(٢) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (٦٤٨ – ٩٢٣)، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٢٧٨ .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م ، ج٢ص ١٩٢ ؛ أحمد حسين السيد ماضى : العصبية المذهبية وآثارها فى بلاد الشام عصر سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة طنطا ، ٢٠٢٢ ، ص ٢٩٠ .

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م ، ج٢ ، ص ٢٨١ .

(٥) سارة العتيبى : الأعمال الخيرية لسلاطين المماليك فى مكة والمدينة ، ص ١١٧ .

نص وصية أمير المدينة لقمع بدع الشيعة وحماية السكان والحجاج وتلقي المحمل".

فلكتمل بتقوى الله تعالى شرفك ، ولتتبع في الشريعة الشريفة سلفك ، وكتاب الله عزوجل المنزل ، أنتم أهل بيت فيكم تنزل ، وسنة جدكم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي محدكم المؤثل ، ومعرفة حق من مضى عنكم ، وإلا فعمن تؤمل ، وإزالة البدع وإلا فلأي شيء تصقل سيوفكم ، ولماذا تعدل رماحكم ، وغلاة الشيعة والرافضة هم دنس من انتمى إلى هذا البيت الشريف بولاته، وهم سبب وقوف من يقصد الدخون تحت لوائه . فهم وإن حسبوا من أمداده ، ليسوا إلا من المكترين لسواده ، أرادوا حفظ المودة في القرى فأحلوا ، وقصدوا تكثير عددهم فقلوا ، وأين من هو بري، من سوءات مذهبهم ، أن يتظاهرون بالولاء فيعد في أهل البدع بسببهم، مع أنهم طمعوا في رضى الله فأخطأتهم المطامع ، وأنهم رادوهم عددا إلا أنها كزيادة الشعياء وكزيادة الأصابع فصميم عزمك على ما عاهدت الله عليه من رفع أيدي قضاتهم، ومنعهم هم ومن اتبع خطوات الشيطان لسبيل مرضاتهم ، وحذرهم مما لا يعود معه على أحد منهم ستر يشبل ، ولا يبقى معه لغير السيف حكم يقبل ، فمن خاض للسلف الصاح بم ذم أغرق في تياره ، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره، وأن تلزم أهل المدينة الشريفة بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن المعظمة أعلامها ، وسمعت في تلك الحجرة المكرمة أحكامها ، مع تعفية آثار ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتى لا يتعقد ما تقع مثار ، وتوطئة أكتاف ذلك الحمى لئلا يبقى به لمبطل في مدارج نطقه عثار ، والوصية بسكان هذا الحرم الشريف ومن ينزل به من نزيل ، ويحاور به مستقرا في مهاد إقامة أو مستوفرا على جناح رحيل ، ومن يهوى إليهم من ركائب ، ويأوي إليهم من رفقة مالت من نشوات الكرى بهم راقصات النجائب، ومن يصل من ركبان الآفاق، وإخوان انوى يتشاكون إليهم الفراق المر . ومن يتلافى بها من طوائف كلهم في بيوت هذا الحي عشاق وهم أمم شتى جموعهم من مصر والشام واليمن والعراق، وما يصل معهم في مسيل وفودنا ، وسيل جودنا، ومجاملنا الشريفة ، تلك التى ينصب لنا بها في كل أرض سرير ، وأعلامنا التي ما سميت بالعقبان إلا وهي إليها من الأشواق تطير ، فمتى عرف وشعرت بمقدم ركابهم ، أو برقت لك عوارض الأقمار من سماء بانهم، فلتبادر إلى تلقيهم ، وقيل لنا الرض في

آثار مواطيهم وقم بما يجب في طاعة الله وطاعة رسوله وطاعتنا ، وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم أبداً عن جماعتنا(١) .

ويمكن أن نرصد أيضاً الموقف العام من الشيعة تزامناً مع ما حدث من حريق احترق فيه المسجد النبوي الشريف سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، ومن الغريب أن هذه الحادثة كانت مناسبة لهجوم معظم أفراد المجتمع على الفكر الشيعي المتطرف الذى يبدو أنه قد بدأ يتغلغل فى تلك الفترة، ومن مظاهر هذا الهجوم تلك الأبيات الشعرية :

لم يحترق حرم النّبيّ لريبة ... تخشى عليه ولا دهاة العار

لكنّ أيدي الرّوافض لامست ... ذلك الجناب فطهّرته النّار (٢)

أَضف إلى ذلك أيضا هجاء الشاعر ابن تولوا المغربي للشيعة ونعتهم بالسفه لسبهم الصحابة الكرام مما حرم عليهم الذهاب إلى الحرم بعد واقعة الإحراق :

قل للروافض فى المدينة ما بكم ... يقتادكم للذمّ أى سفيه

ما أصبح الحرم الشريف محرّما ... سوى لذمّكم الصّحابة فيه (٣) .

صفوة القول فقد إرتبطت السلطة المملوكية ببلاد الحرمين إرتباطاً معنوياً واستراتيجياً وأخيراً وكانت العلاقة بين السلطة المملوكية ومكة المكرمة والمدينة المنورة كانت علاقة خاصة ومختلفة دارت فى فلك السياسة والمجتمع ، وكان الاهتمام والرعاية بالحرمين الشريفين وأهله هما منبع

(١) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م ، ص ١٤٤ والتى تليها ؛ ريما القرناس : رعاية الفئات المحتاجة فى مكة والمدينة خلال العصر المملوكى ، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة الدمام ، ٢٠١٤ ، ص ٣٤٧ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص ٣٦؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٦م ، ج٧ ص ٤٥٥.

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص ٣٦؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٧ ص ٤٥٥ ؛ أحمد حسين السيد ماضي : العصبية المذهبية ، ص ٢٣٠ .

الشرعية الدينية الأولى للسلطة السياسية المملوكية التى لم تقبل أن ينازعها فيها أحد ، فتداخل السياسى مع الدينى مع الاجتماعى هذا التداخل الذى يمثل أحد أبرز أدوات السلطة فى العصور الوسطى الإسلامية .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

ابن الأثير " أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني، ت (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ م)

الكامل في التاريخ ، تصحيح د/ محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت، سنوات الطباعة ١٩٨٧، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣.

ابن تغري بردي: (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي) ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق حسين نصار، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

ابن جبير " أبي الحسين محمد بن أحمد " ت (٦١٤هـ / ١٢١٧م)

رحلة ابن جبير، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م.

ابن حجر العسقلاني: (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد) ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م.

إنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م.

ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٢٥٧هـ /٨٧٠-٨٧١م).

فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٧٤م.

ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م

مقدمة إبن خلدون ويليها تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م.

الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي) ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م.

الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

ابن العماد الحنبلي: شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن محمد) ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٦م.

ابن عبد الظاهر: (محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي) ت ٦٩٢هـ-١٢٩٢م.

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله) ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م

التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

الفاسي: محمد بن أحمد بن علي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م)

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق :العلمية، محمد حامد الفقى ، فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦ .

ابن فهد: النجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)

إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القري ، السعودية مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى .

المقريزي: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ج٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء والملوك ، مكتبة الخانجى مصر ، ومكتبة المثنى

بغداد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥ .

المراجع العربية :

راشد شعبان القطحاني :

أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ١٤١٤ ، ١٩٩٤ .

سعيد عاشور :

العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٩٤ .

سليمان عبد الغنى مالكي:

بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة في بغداد ٢، ١٩٩٣م.

ماجد بن عبد الله خليل الحازمى :

الجهود التربوية لعلماء المسجد الحرام في عصر المماليك ، مجلة البحث العلمي في التربية ، العدد التاسع عشر لسنة ٢٠١٨ .

محمد أمين:

الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (٦٤٨ – ٩٢٣)، القاهرة، ١٩٨٠م

محمد جمال الدين سرور:

تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٣م

محمد كامل حسين:

الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى إلى آخر الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

محمد محمود العناقرة :

الحياة الاقتصادية في الحجاز في عصر سلاطين المماليك، الهيئة العامة للكتاب ، الأردن ، جامعة اليرموك ، ٢٠١٥ م .

مصطفى دويدار:

أمراء الطواشية ودورهم السياسي والحضاري في العصرين الأيوبى والمملوكي الأول ، دار العالم العربى ، القاهرة ، ٢٠١٧.

الدراسات والبحوث :

أحمد ناصف :

أغراض السفارات إلى مصر فى العصر المملوكى : القوى الإسلامية والمغول أنموذجاً ، بحث منشور بمجلة البحوث والدراسات الأندونسية ، ٢٠١٧ .

سارة بنت عبد الله سيف العتيبى :

الأعمال الخيرية لسلاطين المماليك فى مكة والمدينة ، مجلة الجمعية التاريخية السعودية ، السنة ١٤ ، عدد ٢٩ ، ٢٠١٤ .

عبد الكريم حلول :

نوازل المكس دراسة فقهية تحليلية ، المجلة العربية للنشر العلمى ، العدد التاسع والعشرون ، ٢٠٢١ .

مسعود محمود عبادى :

عفاريت المحمل عصر سلاطين المماليك ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب جامعة جنوب الوادى ، ٢٠٢١ .

نادية عابد العدوانى :

وظائف العسكريين المماليك فى مكة المكرمة فى عصر المماليك الجراكسة ، بحث منشور فى المجلد الثالث من العدد السادس والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية .

الرسائل العلمية :

أحمد حسين السيد ماضى :

العصبية المذهبية وآثارها فى بلاد الشام عصر سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة طنطا ، ٢٠٢٢ .

أحمد عبد الحميد خفاجي:

موقف مصر من الحجاز فى عصر المماليك الجراكسة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٦٨ .

إيمان صلاح عطاطة :

دور نساء البلاط في مصر في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة طنطا ، ٢٠١٥ .

خالد الجابرى :

الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ، رسالة ماجستير كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤١٣هـ .

ريما القرناس :

رعاية الفئات المحتاجة فى مكة والمدينة خلال العصر المملوكى ، رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة الدمام ، ٢٠١٤ .

وليد كمال شعبان إسماعيل :

الرعاية الاجتماعية فى بلاد الحجاز زمن سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة الفيوم ، ٢٠١٧ .